المشروع السوسيولوجي للتربية عند إميل دوركهايم
(قراءة في كتاب التربية وعلم الاجتماع)

The Sociological Education Project of Emile Durkheim

سميـــر أبيـــش*

جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل(الجزائر)، Samir.oubbiche@univ-jijel.dz

تاريخ الاستلام : 2021/04/30 ؛ تاريخ القبول : 2022/01/25

ملخص : يهدف هذا النص بالأساس إلى إبراز الاهتمامات المبكرة لعلماء الاجتماع الآباء بالظاهرة التربوية، وهنا الحديث بالأساس على واضع الأطر العلمية والمنهجية لهذا العلم وهو عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم، وكيف أن الظاهرة التربوية شكّلت مند البداية عنده جزءا من نظريته في حتمية الاجتماعية، وظهر ذلك عبر مجموعة من الأبحاث والدراسات التي قام بها، والتي شكّلت ميلادا لما بات يعرف في ما بعد بسوسيولوجيا التربية، ولعل مؤلفه التربية والمجتمع هو أحد هذه الإضافات وأجلها، والتي حاولنا من خلالها الوقوف على إرهاصات دوركايم حول سوسيولوجيا التربية.

الكلمات المفتاحية: دوركايم ؛ كتاب التربية والمجتمع ؛ سوسيولوجيا التربية؛ علم الاجتماع ؛ التربية.

Abstract: This text aims mainly to highlight the early concerns of sociologists and fathers with the educational phenomenon, and here the discussion is mainly about the author of the scientific and methodological frameworks for this science, which is the French sociologist Emile Durkheim, and how the educational phenomenon formed from the beginning with him part of his theory of social determinism, and this appeared through a group From the researches and studies he carried out, which formed the birth of what later became known as the sociology of education, and perhaps his author Education and Society is one of these additions and for the sake of which, through which we tried to identify Durkheim's harbingers about the sociology of education.

Keywords: Durkheim; Education and Society Book; Educational ; Sociology Education .

* المؤلف المراسل.

1- مقدمة

إذا كان الحديث داخل أدبيات السوسيولوجيا لم يزل غير حاسم بعد حول المؤسس الأول والمبتكر لعلم دراسة الظواهر الاجتماعية أو ما يعرف بعلم الاجتماع، بين المتحمسين للاكتشافات الخلدونية للعمران البشري وبين المنتصرين للإرهاصات الكونتية للفيزياء الاجتماعية، فإنهم يكادون على أن يجمعوا بأسبقية إميل دوركايم في القيام بوضع اللبنات الأولى لعلم اجتماع التربية، وأن أعماله التي كرسها لدراسة النظم التربوية مثلت المخاض الأول لولادة السوسيولوجيا التربوية.

ولقد ظهرت هذه اللبنات الأولى للمشروع السوسيولوجي- التربوي عند دوركايم ضمن كتابه المشهور الموسوم بالتربية وعلم الاجتماع الذي حاول فيه نقد مختلف المفاهيم والتحديات التي كانت تواجه التربية في عصره ويبتكر طرائق حديثة في حقول التفكير التربوي ويسقط على الكثير من المفاهيم التربوية المعاني التقليدية والبسيطة التي كانت ملصقة بها، كمفهومه للتربية والتنشئة الاجتماعية وأن يؤكد على الوظيفة الاجتماعية للتربية وعلى اجتماعية الفعل التربوي.

ولقد حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية أن نكشف عن بعض من الأسس التي تضمنها المشروع السوسيولوجي للتربية عند أميل دوركايم بقراءة لأهم عمل فكري له في هذا المجال وهو كتاب التربية وعلم الاجتماع.

1.1- التعريف بإميل دوركهايم(1858-1917): ولد إميل دوركايم في 15ابريل 1858م في بلدة ابينال بالقرب من سهل اللورين من عائلة يهودية قديمة من أصل ألزاسي، وكان دوركهايم معدا ليصبح حاخاما مثلما كان والده وجده(كابان و دورتيه، 2010، ص53)، ولذلك اتجه دوركايم منذ طفولته وصباه نحو دراسة التلمود والعهد القديم كما درس أيضا العبرية والتاريخ ثم هجر اللغويات كي يدرس تاريخ الأديان، والى جانب اليهودية تأثّر دوركايم بتعاليم الديانة الكاثوليكية تلك التي لقنتها إياه إحدى مدرساته الكاثوليكيات وهي امرأة لها فضل تربيته وتثقيفه ودرايته بتعاليم الدين الكاثوليكي التي تلقاها من هده الكاثوليكية التي كان لها أثرها الواضح في نشأته الدينية تلك التي غلبت على معظم كتاباته السوسيولوجية فجاءت دراساته في علم الاجتماع الديني ذات مسحه صوفية متميزة.(مرسي، 2008، ص74)

لكن الطفل الذي كان مشروع حاخام المستقبل سرعان ما غير وجهته عن هذا المصير الديني إلى الدراسة العلمانية التي حقق فيها نجاحا باهرا، ليتلحق بمدرسة المعلمين العليا عام 1979 التي كانت بيئة ثقافية دينامية إلى أقصى حد وتابع فيها دروس كبار الفلاسفة والمفكرين إلى جانب زملاءه في الصف كهنري بيرغسون(كابان و دورتيه، 2010، ص53)، وبعد تخرجه من هذه المدرسة سنة 1882م اشتغل دوركايم بالتدريس في المدارس الثانوية حتى سنة 1887م، ثم أتيح له أن يذهب إلى ألمانيا في إجازة علمية، وهناك تعرف على فكر (فاجنر) و(شمولر) و(فونت) وتأثر بهم وانعكس هذا على موقفه الفلسفي، سواء من الفكر أو من الواقع، هذا بالطبع بجانب تأثره البالغ بفلاسفة عصر التنوير من أمثال (جان جاك روسو) ومرنتسكيو، كما تأثر بالطبع بفكر(سان سيمون) الذي عده دركايم أستاذه في علم الاجتماع .(دور كهايم، 1961، ص4) ثم انتقل للتدريس بجامعة بوردو وألقى دروسا في علم الاجتماع العائلي والجنائي

وفي التضامن الاجتماعي والانتحار وفي التربية والدين كما ألقى دروسا في تاريخ المذاهب السوسيولوجية وفي المسئولية والجزاء والتنظيم الاجتماعي للقبائل الاسترالية القديمة(مرسي، 2008، ص75)، وبعد أن عيّن بجامعة بوردو أنجز أطرحته للدكتورة حول تقسيم العمل الاجتماعي، وقد نشرها عام 1893 ليعين بعدها بالسربون عام1906.(كابان و دورتيه، 2010، ص53)

توفي دوركايم في 15نوفمبر1917م بعد الصدمة التي تلقاها بمقتل ابنه الوحيد في عمليات الحرب العالمية الأولى، الابن الذي خطط والده أن يكون وريثه العلمي، ذلك أن دوركايم جعل ابنه يتخصص بموضوع علم اجتماع اللغة، وبعد مقتل ولده في الحرب فقد إميل دوركايم أمل العيش في الحياة فمات وهو يحمل الأفكار المرة عن الحياة وويلاتها وعدم استقرارها.

ويعتبر دوركايم أحد دعائم الحركة العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهو مؤسس علم الاجتماع الحديث وزعيم المدرسة الفرنسية (الوظيفية) لعلم الاجتماع ولقد ترك لنا دوركهايم تراثا علميا يتمثل في مجموعة من المؤلفات والمقالات هذا بالإضافة إلى إنشائه المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع.(إحسان محمد الحسن، 1999، ص224)

ومن أهم مؤلفاته:

1- تقسيم العمل الاجتماعي(1893)

2- قواعد المنهج في علم الاجتماع(1895)

3- الانتحار(1897)

4- التربية الخلقية(1903)

5- الصورة الأولية للحياة الدينية(1912)

6- علم الاجتماع والفلسفة(1924)

7- المجلة السنوية لعلم الاجتماع عام 1896م التي أصبحت لعدة سنوات المجلة الرئيسية للفكر الاجتماعي والبحث في فرنسا.(بيومي، 2000، ص134)

8- التربية والمجتمع 1922

2.1- أعمال إميل دوركهايم والتمهيد لنشأة علم اجتماع التربية:

في مقدمته التي وضعها لكتاب دوركهايم التربية والمجتمع يشير على أسعد وطفة إلى أن الأعمال التي كرّسها دوركهايم للتربية قد شكّلت المخاض الأول لولادة السوسيولوجيا التربوية، وأنه قد كان لدركهايم كأستاذ في جامعة السربون الفضل الكبير في إكساب التربية طابعها الأكاديمي، وأن له الفضل بصفة عامة بين علماء الاجتماع الكلاسيكيين في تحليل العملية التربوية كجزء متكامل من نظريته الاجتماعية العامة، ويشير علماء الاجتماع عامة إلى أن دوركهايم هو أول من أشار بوضوح إلى الحاجة إلى مدخل اجتماعي لدراسة التربية وذلك في أواخر القرن 18(دوركهايم، 1996، ص6)، وفي مقدمة كتابهما علم الاجتماع المدرسي وفي خضم حديثهما عن التطور التاريخي لعلم اجتماع التربية ومختلف المراحل التي مرّ بها يشر على أسعد وطفة وزميله جاسم الشهاب أنه في(فرنسا تفجّرت عبقرية إميل دوركهايم، في أعمال سوسيولوجية تركت بصمات واضحة في مختلف جوانب الفكر التربوي على امتداد الجغرافية الإنسانية في

النصف الأول من القرن العشرين، لقد أتحف دوركهايم السوسيولوجيا المدرسية بكتابه المعروف بالتربية والمجتمع ثم ظهر كتابه الهام التطور التربوي في فرنسا وكتابه التربية الأخلاقية وقد شكلت هذه الأعمال الرائدة النواة الحقيقية لعلم الاجتماع التربوي والمدرسي على وجه الخصوص.(وطفة والشهاب، 2003، ص9)، كما أوضح عبد الله محمد عبد الرحمن أن أعمال دوركهايم وخاصة تحليلاته لمشكلة التعليم في المجتمع الحديث من أهم الإسهامات السوسيولوجية لرواد علم الاجتماع الأوائل.(عبد الله عبد الرحمن، 2006، ص95)، ويعتبر عبد الله الرشدان أن اميل دوركهايم وحده بين الشخصيات العظيمة في علم الاجتماع الكلاسيكي قدّم تحليلا للعملية لتربوية كجزء هام لنظريته العامة في علم الاجتماع، ولقد مكنته سلسلة المحاضرات المشهورة التي كان يلقيها في السربون خاصة على المعلمين مكانته كمؤسس لعلم اجتماع التربوي، وإذا ما تم التسليم بأن دوركهايم يعد حتى الآن المؤسس للجهود المتعلقة بدراسة المؤسسات التربوية علميا فإن كتابته حول هذا الموضوع تميزت بتأثير خاص على البحوث التربوية اللاّحقة، وتأكيدا على ذلك فإن بعضا من انتاجه تم تداوله بطريقة غير مباشرة، فالقارئ لبحث بارسونز الفصل المدرسي كنظام اجتماعي لا ينطلي عليه التأثّر الكبير لبارسونز بكتاب دوركهايم التربية والمجتمع(بدران، 2003، ص14)، كما نجد من بين كبار السوسيولوجيين الذين تأثّروا بدوركهايم وشكّلت إسهاماته عاملا حاسما في تبلور نظريتهم بيير بورديو الذي وجد في التقليد الطموح لدوركهايم المتمثل في تأسيس علم الاجتماع بصفة عامة وعلم اجتماع التربية بصفة خاصة وما وضعه من منهجية صارمة ودقيقة في دراسة الظواهر الاجتماعية أحد النماذج التي تأسّ بها في التأسيس لنظريته الاجتماعية.(بزاز، 2007/2006، ص31)

3.1- التعريف بكتاب التربية والمجتمع:

نشر كتاب التربية والمجتمع أول مرة سنة 1922 في دار النشر الفرنسية (المطابع الجامعية الفرنسية) وذلك بعد وفاة دوركهايم بواسطة تلميذه بول فوكونيه الذي يقول عنه موريس دوبيس (أن له يدين جميع طلابه في معرفتهم لأفكار دوكهايم في مجال التربية وخاصة التي يتضمنها عمل دوركهايم الرائد التربية والمجتمع) (دوركهايم، 1996، ص6) وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها دوركهايم في السربون بالأساس على معلمي المرحلة الابتدائية، ويحتوي الكتاب على مقدمة وأربعة فصول في 130صفحة، الفصل الأول عالج فيه التربية، طبيعتها ودورها وأما الفصل الثاني فعالج فيه طبيعة وأساليب البيداغوجيا أما الفصل الثالث فقد عالج فيه مفهوم البيداغوجيا والسوسيولوجيا في حين أن الفصل الرابع تطرّق فيه لتطور ودور التعليم الثانوي بفرنسا

ولقد أعيد طبع هذا الكتاب مرّات عدّة وترجم إلى لغات مختلفة منها الانجليزية والعربية التي ترجم إليها كتاب التربية والمجتمع من طرف الدكتور على أسعد وطفة وهى الترجمة التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه، وينبغي أن نبين أن الدكتور أسعد وطفة عالم اجتماع أكمل دراسته الجامعية في فرنسا وهو ما يجعل هذه الترجمة أمينة في نقل محتوى الكتاب وهو الكتاب الذي يقول عنه مترجمه أن القارئ عندما يقارب عمل دوركهايم التربية والمجتمع بأنه يخاطب إحدى أهم العبقريات العلمية في مجال السوسيولوجيا عامة

وفي مجال السوسيولوجيا التربوية خاصة، ويجد نفسه أمام لوحة علمية للفكر التربوي تبرز فيها الأصالة المنهجية التي عرف بها دوركهايم.(دوركهايم، 1996، ص6)

4.1- عناصر المشروع السوسيولوجي- للتربية عند دوركهايم:

يمكن ذكر أهم وأبرز عناصر المشروع التربوي التي ظهرت في كتاب دوركايم التربية والمجتمع على الشكل الآتي:

1- نقد التصورات التقليدية للتربية: إن أول عمل قام به إميل دوركهايم في طريقه نحو بناء مشروعه السوسيولوجي التربوي هو تخليصه للتربية من الشحنات السيكولوجية التي كانت تغمرها في عهد(أوجست كومت وسبنسر وستيوارت ميل) بوصفها غاية لتحقيق الكمال المطلق والنمو الأمثل للملكات الفردية، ففي الوقت الذي يركز فيه هؤلاء الفلاسفة على الجوانب الفردية للتربية ينظر دوركهايم (إلى التربية على أنها شيئا اجتماعيا بالدرجة الأولى) (دوركهايم، 1996، ص11)، ويعتقد دوركهايم أن التربية التقليدية التي كان ينادي بها (ميل وكومت) كانت تتصف بطابع الشمولية وتفتقر إلى الكفاءة والموضوعية وأنها تترك التربية لقدر المبادرة الفردية، ويرى دوركهايم أن التربية التقليدية (تسعى إلى تحقيق شروط الحياة الفيزيائية فقط، في حين أن الحياة السعيدة تتطلب وجود علاقة متوازنة بين العضوية والوسط الذي توجد فيه) (دوركهايم، 1996، ص8).

وبعدما بيّن دوركايم عجز التصورات التقليدية للتربية عن تقديم مفهوم شامل للتربية واقتصارها على تصورات مثالية تركّز على الكمال الفردي للشخص أو الكائن الحي دون النظر إلى تأثير الجوانب الاجتماعية أوضح دوركايم في العنصر الثاني أن التربية لا تنموا مستقلة على المجتمع الذي وجدت فيه وأنها بذلك تتمايز أهدافها وفقا للمجتمع، ويضحد دوركايم من خلال استقراء الأدلة التاريخية(تعريفات التربية التي تنطلق من مسلمات أساسية تؤكد وجود تربية مثالية كاملة تميّز جميع الناس بلا تمييز) وضحد دوركايم هذه التصورات بإعطاء أمثلة بأهداف التربية في أثينا وكيف كانت تسعى إلى إعداد عقول نيرة فطنة متوازنة قادرة على تذوق الجمال وقادرة على التأمل الخاص وذلك بخلاف التربية في روما التي كانت تهدف إلى تحويل الأطفال إلى رجال فعل وعمل والى تنمية الحماسة في نفوسهم وتعزيز حب الانتصارات العسكرية) (دوركهايم، 1996، ص59)، وذلك دون إعطاء أي أهمية للآداب والفنون مثل ما كان يقع في أثينا.

وكما تتغير التربية في المكان ومن مجتمع لآخر فكذالك تتغير التربية وأهدافها بتغير الزمان ويعطي دوركايم مثالا بهدف التربية في العصور الوسطى وكيف كانت التربية مسيحية قبل كل شيء، وكيف أصحت في عصر النهضة علمية وأدبية بدرجة أكبر وذلك في نفس المجتمع.

ويرى دوركايم أن عدم مراعاة هذه العوامل التي تحكم الفعل التربوي ينعكس سلبا على حياة أطفالنا الذين لم يتمكنون من التكيف مع مجتمعهم، ولهذا يعتقد دوركايم أنه في كل مكان وفي كل لحظة من الزمن يوجد نموذج منظم للتربية وأن الأفكار والعادات هي التي تحدد هذا النموذج التربوي السائد وأنه في نهاية الأمر نتاج للحياة المشتركة وتعبير عن الضرورات الأساسية للحياة الاجتماعية.(دوركهايم، 1996، ص61)

2- مفهوم التربية وطبيعتها عند دوركهايم:

2-1- مفهوم الاجتماعي للتربية: بعد تحليله للعملية التربوية وعلاقتها بالنظام الاجتماعي وكشفه لعجز التصورات التقليدية عن إعطاء تصور شامل لمعنى التربية منح دوركايم تعريفا للتربية بأبعاد اجتماعية(وهو أن التربية تتمثل في الفعل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم ترشد بعد وذلك من أجل الحياة الاجتماعية، ويكمن هدف التربية عند دوركهايم في تنمية الجوانب الفيزيائية والعقلية والأخلاقية عند الأطفال وتطويرها على النحو الذي يحدده النظام السياسي بوصفه كلا متكاملا ووفقا للصورة التي يعلنها الوسط الاجتماعي الخاص الذي ينتمي إليه الأطفال). (دوركهايم، 1996، ص19)

إن تصور دوركايم للتربية كظاهرة سوسيولوجية لا ينفصل عن تصوره العام للظاهرة الاجتماعية، وهي أن التربية تتميز باستقلالها عن الفرد وبأسبقيتها عليه وعموما فهي تتسم بخاصيتي الخارجية والقهر، لأن النظام الاجتماعي يفرض معايير أخلاقية وعادات تربوية يلزم الأفراد و الجماعات بالامتثال لها والتكيف معها وإلاّ تعرضوا بفعل ذلك للعقاب.

ولقد بني دوركهايم موقفه من التربية باعتبار الفرد يولد وهو مجرد من طبيعته الاجتماعية، والتربية هي الوسيلة الأنجع لتكوين أشخاص على الصورة التي يريدها المجتمع وطبقا لأهدافه، كما تضع الطفل في وضع مباشر مع مجتمع محدد، وأنها تطبيع اجتماعي، أي تلك الآلية التي يتم من خلالها دمج الناشئة ضمن نسيج نمط حياة سائد في المجتمع.

ويعتقد إميل دوركهايم بأن غرس المظاهر الجماعية في الفرد بواسطة التربية هو ما يحدد هدف التربية، ومهمة التربية في نظره تكمن في أن ينتقل الفرد من وضع أناني غير اجتماعي إلى وضع اجتماعي، أي أنها تخلق فيه روحا جديدة تجعله قادرا على تحمل حياة الجماعة، فالتربية تجعل الإنسان ينتقل من وضع يكاد يكون مشابها لوضع الحيوان، إلى وضع رفيع المستوى يتحكم فيه العقل ويؤهل الشخص إلى أن يلعب دورا إيجابيا في تطور المجتمع بصفة عامة، بحيث يرى أنه بفضل تراكم معارف أجيال الماضي، أصبحت الثقافة العلمية من الضروريات والأولويات ولم تعد فقط من الكماليات بالنسبة للإنسان والمجتمع، فالتربية إذن من خلال هذا الشكل، هي مجموعة من التفاعلات المتبادلة بين مؤسسات المجتمع، فهي تهدف إلى إعداد الكائن الاجتماعي، ويرى إميل دوركهايم أنها المسؤولة عن إتاحة فرص النمو لكي يتحقق في هؤلاء الأفراد ألوانا من الفكر والعاطفة والسلوك، التي ما كان يستطيع تمثيلها بنفس الدرجة والمستوى لو تُرك بدونها، ويضيف أن الموضوع الحقيقي للتربية ليس شيئا آخر غير إعداد الكائن البشري، فهي عملية تعليم وتعلم الأنماط المتوقعة من السلوك الإنساني، فهي بذلك عمل إنساني وليست شيئا يمتلكه الأفراد ولكنها عملية لها مراحلها وأهدافها، فالطفل يرث بعض الأسس البيولوجية عن الآباء ولكنه يكتسب المكنونات النفسية والاجتماعية لشخصيته عن طريق التربية ليكون عضوا فعالا داخل المجتمع، وهكذا يتمثل عطاء التربية للمجتمع في إعداد النظم الاجتماعية بالقوى البشرية وفي تطوير ثقافة المجتمع.

وكخلاصة يمكن القول أن التربية، بالنسبة لدوركايم، تأخذ أشكال متعددة مختلفة وذلك بتعدد الوسط الاجتماعي واختلاف المجتمع، كما يمكن اعتبارها وسيلة لتنظيم ذات الفرد وذات المجتمع.(مركز التوجيه والتخطيط التربوي، 2017)

2-2- طبيعة التربية حسب التصور الدوركهايمي: إن إميل دوركهايم في تصوره لطبيعة التربية لا يفرق بين التربية وعملية التنشئة الاجتماعية ويعبّر عن التربية بأنها ليست إلاّ تحقيقا للتنشئة الاجتماعية للأجيال الصغيرة، ويذهب دوركهايم في تأكيده على اجتماعية العملية التربوية إلى أن الإنسان يوجد بداخله كائنان لا يمكن الفصل بينهما، يمثل الأول حياتنا الفردية ومجرياتها وأما الكائن الثاني فهو نسق الأفكار والمشاعر والعادات التي لا تعبر عن شخصيتنا بل عن الجماعة التي ننتمي إليها(وهي التي تشكل الكائن الاجتماعي ويكمن هدف التربية في بناء هذا الكائن الاجتماعي)(دوركهايم، 1996، ص69)، ويرى دوركهايم أن الشيء الذي يجعل من التربية عملية اجتماعية هي متطلبات الحياة الاجتماعية وخصوصية الظاهرة الإنسانية، وأنه في الوقت الذي يمكن أن نطلق فيه على تربية الحيوانات عملية ترويض متسارعة تسعى إلى تنمية بعض الغرائز الكامنة في الحيوان ولكنها لا تعده لحياة جديدة بل تساعده على تنمية الوظائف الطبيعية لديه فقط، وذلك أن البنية الفطرية الطبيعية كافية لرعايتها وكل شيء مجهّز عندها وفقا لقانون الفطرة والغريزة على خلاف الحياة الاجتماعية والإنسانية لدى الفرد التي توصف بالتعقيد وتقتضي وجود كفاءات وقدرات متنوعة لا يمكن أن تسجّل في بنية الإنسان العصبية تحت شكل استعدادات عضوية مكتسبة، ويترتب على ذلك أن هذه الكفاءات لا يمكن أن تنتقل حسب دوركهايم من جيل لآخر عن طريق الوراثة بل المهمة تقع على عاتق التربية.

ويعتقد إميل دوركايم كما أشرنا سابقا بأن غرس المظاهر الجماعية في الفرد بواسطة التربية هو ما يحدد هدف التربية، ومهمة التربية في نظره تكمن في أن ينتقل الفرد من وضع أناني غير اجتماعي إلى وضع اجتماعي، أي أنها تخلق فيه روحا جديدة تجعله قادرا على تحمل حياة الجماعة، فالتربية تجعل الإنسان ينتقل من وضع يكاد يكون مشابها لوضع الحيوان، إلى وضع رفيع المستوى يتحكم فيه العقل ويؤهل الشخص إلى أن يلعب دورا إيجابيا في تطور المجتمع بصفة عامة.

وفي ما يلي رسم توضيحي يشرح مفهوم التربية وطبيعتها عند دوركهايم.(أمحمد أعويش، 2017)

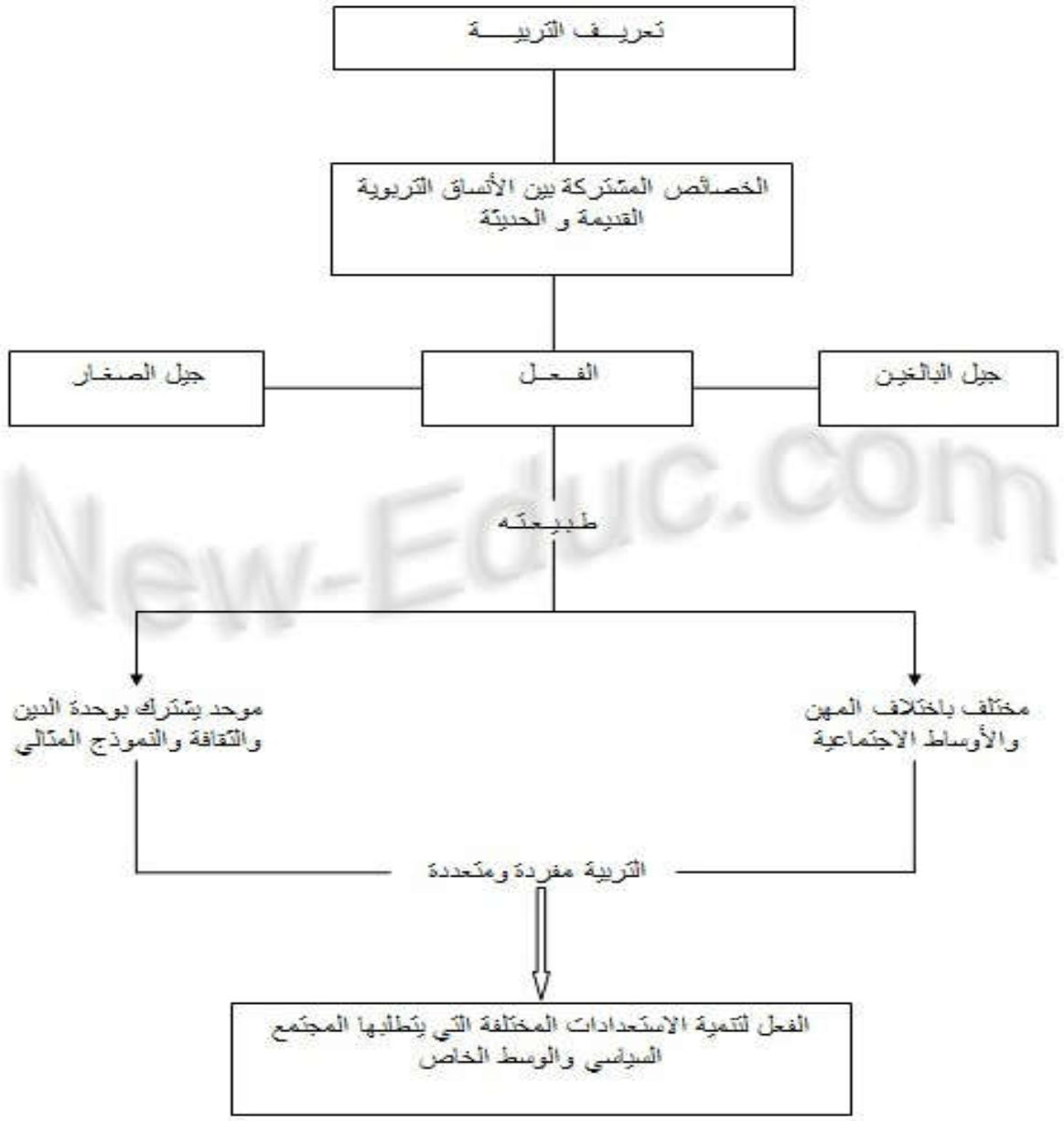

3- الوظيفة الاجتماعية للتربية داخل المشروع الدوركهايمي:

بعد توضيحه للطبيعة الاجتماعية للتربية وأنها الأداة الأكثر ضمانا في تكوين الكائن الاجتماعي، يعتبر دوركايم أن بقاء المجتمع ككل متكامل لا يمكنه الاستمرار إلاّ إذا كان هناك حد أدنى من التجانس بين أفراده، وهو التجانس الذي تعززه وتضمنه الوظيفة الاجتماعية للتربية من خلال تكريس عناصر الثقافة الأساسية في نفوس الأطفال، وذلك بأن تزرع بداخلهم قيما ومعايير المجتمع الضرورية لإحداث عملية التكامل الاجتماعي، كما يرى أن مهمة النظام التربوي في المجتمع هي دمج الأفراد في المجتمع، وهو ما يطلق عليه مفهوم التضامن الاجتماعي، وهذا يعني تزويد الأفراد بما يهم حاجاتهم الشخصية من استعدادات وحوافز لتحقيق كياناتهم الفردية من جهة أولى، ومن جهة ثانية تزويدهم بمختلف الأفكار والإحساسات والقواعد التي تعبر عن ثقافة المجموعات الاجتماعية لتشكل الكائن الاجتماعي، وذلك كله

بغية ضمان التوازن والاستقرار داخل أبنية المجتمع، أمّا في حالة المجتمعات التي تتزايد فيها حدّة التقسيم الطبقي والتنوع الفئوي فإن التربية تقوم بوظيفة تعزيز الأفكار والمشاعر المشتركة واحترام التنوع الثقافي داخل نفوس الأطفال، مما يضمن لكافة أفراد المجتمع التعايش في انسجام ويجنبه الانشقاقات والتوترات ومختلف أشكال الصراع الناتجة عن تغليب المصالح الطبقية، وفي حالات التهديدات التي تواجه المجتمع تعمل التربية على تعزيز الروح القومية والوطنية داخل أفراد المجتمع وعلى ضوء هذه الوظائف الاجتماعية للتربية يصل دوركهايم إلى اعتبار التربية الفعل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم ترشد بعد من أجل الحياة الاجتماعية(دوركهايم، 1996، ص67)

4- النظام التربوي ومسؤولية التنشئة الاجتماعية عند دوركايم

بعد تأكيده على أهمية ودور التربية في اكتساب الكائن الاجتماعي، انتقل أميل دوركهايم إلى الحديث عن النظام التربوي، وكيف أن التغير والتطور الذي شهدته المجتمعات الإنسانية حتّم عليها الانتقال من التربية غير المقصودة التي كانت تساهم فيها جميع المؤسسات الاجتماعية وخاصة الأسرة إلى تربية منضبطة بأهداف محددة ووفق نظام واضح يضمن تحقيق أكبر قدر ممكن من الثقافة المشتركة، حيث يبين دوركهايم أن جميع المجتمعات الإنسانية تتوفر على أنظمة تربوية خاصة بها تتشكل من الممارسات التربوية المترابطة في نسق تتكامل أطرافه من أجل تحقيق غاية واحدة ويوضح دوركهايم مدى العلاقة التي تربط هذا النظام التربوي بالبني الاجتماعية الأخرى وكيف تؤثر هذه البني في النظام التربوي، ويذكر دوركايم أن التجانس الذي يوجد بين البني الاجتماعية يؤدي إلى نوع آخر من التجانس الهام الذي يتجسد في الأنظمة التربوية القائمة (دوركهايم، 1996، ص99) ويكشف لنا دوركهايم أن الأنظمة التربوية هي تعبير صريح عن ثقافة المجتمع التي توجد بداخله ويعطى مثالا على ذلك بالمدارس الفرنسية التي بين أنها مؤسسات اجتماعية تترجم وتعبر عن الروح الفرنسية، ويلقي على عاتق الدولة مسؤولية إدارة هذا النظام التربوي من خلال القيام بعملية التخطيط التربوي وتحديد الأهداف التربوية للمدرسة ومن خلال عملية الإشراف والمتابعة.(السيد، 1998، ص29)، ويوضح دوركهايم أن النظام التربوي يمثل ميدانا خصبا للدراسة الكمية والكيفية بما يوفره من وجود إحصائيات متكاملة، وان هناك طائفتان من الظواهر التربوية التي يمكن دراستها على نحو علمي هي: الأصول التاريخية للمسالة التربوية، وظائف الأنظمة التربوية، وحسب دوركايم لا تخرج الأبحاث في هذا الميدان عن دائرة هذين الطائفتين.

5- الوظيفة التربوية للمدرسة عند دوركايم

وبعد الحديث عن النظام التربوي بين دوركهايم أن أهم ما يستوجب على هذا لنظام هو بناء مدرسة قادرة على تقديم القدر الكافي من الثقافة المشتركة لأفراد المجتمع تمكنهم من العيش المشترك، حيث يذكر دوركهايم بأن العلاقة التي تربط النظام السياسي بالنظام التربوي عموما وتربط الأسرة بالمدرسة بوصفها الأداة الأكثر تعبيرا عن الدولة، توجب على المدرسة العمل على تنشئة أطفالها تنشئة تحقق تكاملهم مع الوسط الاجتماعي الذي يتوجب عليهم العيش في أحضانه.

وإن كان دوركهايم يؤكد على أن الدولة مطالبة عن طريق المدرسة أن تضمن لمواطنيها طائفة من الأفكار والمشاعر المشتركة والتي من غيرها يصبح الوجود الاجتماعي غير ممكن، فإنه لا يعارض قيام

مدارس غير تابعة للدولة؛ ولكن يلزم الدولة من أجل رعاية مصالح مواطنيها أن تعمل هذه المدارس داخل أطر النظام المركزي وذلك حتى لا تتبنى هذه المدارس تربية معادية للحياة الاجتماعية المشتركة.(دوركهايم، 1996، ص19)، كما يؤكد دوركايم على استقلالية المدرسة وعدم تبعيتها لفئة معينة داخل المجتمع وإنما وظيفتها الأساسية هي التنشئة الاجتماعية المشتركة لجميع فئات المجتمع، وذلك لأن هذه التنشئة المبنية على قيم وأفكار ومعتقدات ومعايير اجتماعية مشتركة بين أفراد المجتمع هي التي تمنح أعضاء المجتمع الشعور بالانتماء لهذا المجتمع حسب دوركهايم، وإضافة إلى وظيفة تحقيق التضامن الاجتماعي تسعى التربية إلى مساعدة الفرد على إدراك ذاته الاجتماعية وتنظيمها لتفادي الصراع مع حاجاته الشخصية.(السيد، 1998، ص27)

6- البداغوجيا والتربية عند دوركهايم:

من بين المواضيع التي تضمنها المشروع السوسيولوجي للتربية عند دوركهايم هو تناوله لمسألة البداغوجيا على أنها ذات علاقة بالفعل التربوي الذي يمارسه النظام التربوي بحيث أنها هي المسؤولة على توجيهه وإرشاده، ويشدد دوركهايم على أنه يجب التفريق بين التربية والبيداغوجيا، فالتربية يعتبرها كفعل شامل، عام ومستمر، يكون تأثيرها على الفرد من طرف الآباء أو المعلم في كل لحظة من لحظات الحياة الاجتماعية، ولا ينحصر هذا التأثير التربوي في اللحظات القصيرة التي يتواصل فيها الآباء والمعلمون بالأجيال الصاعدة تواصلا واعيا وبواسطة تعليم بالمعنى الحقيقي للكلمة، أو بنقل تجربتهم لهذه الأجيال. (دوركهايم، 1996، ص93)، في حين أن البداغوجيا حسب دوركهايم تختلف عن الممارسات التربوية غير المقصودة وإنما تتجسد في إطار متكامل من النظريات والآراء والأفكار التربوية، كما تتجسّد في وجهات نظر تدور حول التربية، فالتربية حسب دوركهايم هي موضوع يخضع لدراسة البداغوجيا التي تتمثل في بعض اتجاهات التفكير الخاصة بالقضايا التربوية.(دوركهايم، 1996، ص94)

وإن التربية بوصفها موضوعا للبداغوجيا تتمثل في جملة الممارسات التربوية التي يمارسها المعلمون في إطار عملية الاتصال مع الأطفال والتي نسميها بفن التربية الذي يعتمد أساسا على التجربة العملية المكتسبة، وعليه فإن البداغوجيا حسب دوركهايم لا تسعى إلى دراسة الأنظمة التربوية على المستوى العامي بل إلى تقديم أفكار توجه المربي في مهنته.

فالبداغوجيا حسب دوركهايم تكمن مهمتها في تحقيق التكامل بين الأنظمة المدرسية وحاجات العصر المتنامية وأن تعمل على مساعدة المعلم في تنمية إمكانياته في التفكير النقدي والذكاء حتى يتمكن من ممارسة فن التربية والتعليم بكفاءة واقتدار ويحقق وظيفة المدرسة التربوية.

وعندما حاول دوركايم تعريف البيداغوجيا بإشارته إلى أنها "نظرية عملية" موضوعها التفكير في أنساق التربية وطرائقها بغية تقدير قيمتها، وبالتالي إفادة عمل المربين وتوجيهه وعلى هذا الأساس، وضع مسلمة لكل تخمين بيداغوجي، تجعل من التربية شيئا اجتماعيا بأصولها ووظائفها، وبالتالي فالتربية تتعلق بشكل وثيق بالسوسيولوجيا، ويتساءل دوركايم قائلا: " ولكن، إذا كان دور السوسيولوجيا هو تحديد المرامي التي ينبغي أن تتبعها التربية، هل اختيار الوسائل المستعملة يحتل نفس الأهمية؟" وهنا يرى أن السيكولوجيا

تتدخل هي الأخرى لتأخذ هذا الحق، فإذا كانت البيداغوجيا تعبر عن ضروريات اجتماعية، فإنها لا تتحقق إلا بالأفراد، وبالتالي يجب إيجاد الوسيلة التي تجعل وعي الطفل يتناسب وهذه الضروريات، وبما أن الوعي له قوانينه الخاصة، فإنه يجب معرفتها لتعديلها، ولتوجيه أنشطة الطفل في اتجاه معين، يجب معرفة الينابيع التي تتحرك وطبيعتها، كما يجب توجيه فكر الطفل في اتجاه أو في آخر عند تعليمه مفاهيم تامة ومدققة حول الظواهر والشروط المرتبطة بها، والشكل الذي يجب أن يتمثل له، وهنا يتضح دور السيكولوجيا، وخاصة سيكولوجية الطفل، الذي يتدخل كعلم لحل هذه الإشكاليات، وللتعامل مع أنواع الذكاء والخصائص المتعلقة بالأطفال

إن الحياة المجتمعية هي في نظر دوركايم، امتداد للحياة المدرسية وتطوير واستمرار لها، ولهذا فمن غير المعقول أن تكون الطرائق التي تشتغل بها هذه مختلفة عن طرائق الأخرى، وبالتالي فالسوسيولوجيا والعلوم الاجتماعية تساعد على فهم ماهية المؤسسات البيداغوجية، ويضيف قائلا "فكلما عرفنا المجتمع جيدا، كلما فهمنا جيدا ما يجب أن يكون في العالم المجتمعي الصغير الذي هو المدرسة" ولكنه حينما يرى من زاوية تحديد الطرائق المناسبة يجد أن معطيات السيكولوجيا هي المزود بالعناصر اللازمة لبناء تقنية نموذجُها في المجتمع.

إن حالات المجتمع لا تتعلق بتأثير التعليم فقط، فهي تتعلق أيضا بتصور الطرائق لأن طبيعة الهدف يستلزم طبيعة الوسائل، كما أن كل تحول في البنية المجتمعية يفرض تحولا في نظام الطرائق التربوية، وهكذا يقتنع دوركايم أن التربية تتمثل بطابع يستجيب لحاجيات المجتمع عبر الغايات التي تتبعها والوسائل التي تشتغل بها، إنها تعبر عن الأفكار والأحاسيس الجماعية، وبها يحقق الفرد ربحه داخل المجتمع، وفي البيداغوجيا تجد مبادئ التفكير، وبواسطة السيكولوجيا يمكنها تحديد الطريقة الأنجع للتأثير على الطفل، السوسيولوجيا وعلى عكس ما كان يعتقده المفكرون قبل دوركايم، فهي بالنسبة له محدد الأفكار التربوية وأساس كل فعل تربوي.

7- خصائص الظاهرة السوسيوتربوية عند دوركايم:

من خلال كل ما سبق ذكره من النقاط التي حاول إميل دوركهايم أن يعالجها في محاضراته الموسومة بالتربية والمجتمع والتي حاول من خلالها أن يؤسس لعلم اجتماعي يدرس التربية أو أن ينظر إلى التربية على أنها ظاهرة اجتماعية جديرة بالملاحظة والدراسة العلمية، يمكن أن نستخلص الخصائص التي تضمنها المشروع السوسيولوجي للتربية عند عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم (1858-1917)

1- أن التربية ظاهرة اجتماعية قد وجدت داخل جميع المجتمعات الإنسانية على اختلاف زمانها ومكانها.

2- أن التربية ظاهرة اجتماعية تتغير أهدافها بتغير الزمان والمكان والطبقات والفئات الاجتماعية(دوركهايم، 1996، ص125)، ويعطي مثالا على التربية التي تسود في أوساط الدهماء وكيف تختلف عن تلك التي تسود أوساط النبلاء و التي تسود البيئات الحضرية وكيف أنها ليست هي التي تسود الأوساط الريفية.

3- أنها مرتبطة بباقي الأنظمة الاجتماعية الأخرى وخاصة السياسية والدينية، حيث أن التربية نظام اجتماعي يؤثر ويتأثر بالنظم الاجتماعية الأخرى بالمجتمع.(السيد، 1998، ص27)

4- يعتبر دوركايم التربية عملية ديناميكية متغيرة على الدوام تختلف من عصر لآخر ومن مجتمع لآخر ومن مرحلة تعليمية الى مرحلة تعليمية أخرى. .(السيد، 1998، ص29)

5- أنها قوة قسرية: حيث يذكر دوركايم بأنه ليس صحيحا أننا نربي أطفالنا كما نريد نحن، بل نحن مكرهون على إتباع القواعد التربوية السائدة في الوسط الاجتماعي الذي نعيش فيه(دوركهايم، 1996، ص97)

6- أنها نتاج للتأثير الذي يمارسه جيل على جيل آخر من أجل مساعدته على التكيف مع الوسط الاجتماعي الذي يجب عليه أن يعيش فيه. (دوركهايم، 1996، ص98)

7- أنها تعبير عن ثقافة المجتمع الذي توجد فيه.

8- أنها تلقن داخل مؤسسات اجتماعية متعددة أهمها المدرسة والأسرة، وأن التغير الذي شهدته المجتمعات أوجب الانتقال من أشكال التربية غير المقصودة إلى التربية المقصودة وذلك من خلال النظام التربوي، الذي يرى دوركهايم وجوب إشرافه على العملية التربوية لأنه هو الذي يمثل الدولة والنظام السياسي.

9- إن جميع ما هدف إليه دوركهايم هو ضمان استقرار وتوازن المجتمع، والذي لا يتحقق حسبه إلا بواسطة الوظيفة التربوية للمدرسة.

خاتمة:

لقد استطاعت التصورات والتحليلات العميقة التي قدّمها إميل دوركهايم بمنهجه الوضعي الصارم للتربية ومؤسساتها الاجتماعية، بأن يضع البذور الأولى لعلم سيشكل بعد مدّة من وفاة دوركهايم أهم الحقول السوسيولوجية ليس في فرنسا موطن دوركهايم فحسب بل في باقي أوروبا وحتىّ أمريكا وقد ظهر ذلك جليا في أعمال كبار السوسيولوجيين على غرار بارسونز، وترك العديد منهم ينتبهون لأهمية ودور النظام التربوي داخل المجتمع.

ولقد شكّلت المفاهيم والتصورات التي أعطاها دوركهايم للتربية وطبيعتها والتنشئة الاجتماعية وأهمية الوعي الجماعي في تكوين شخصية الفرد عن طريق نقل الإرث الثقافي الجماعي مع تأكيده على خاصيتي القهر الاجتماعي ودور الدولة في ضمان توجيه النظام التربوي نحو أهداف المجتمع أهم هذه الإضافات الدوركهايمية.

وبعد مرور قرن على وفاة إميل دوركهايم لا تزال الكثير من أفكار هذا الرجل تلقى قبولا واسعا داخل الأوساط الأكاديمية وتلقى الاحترام والإشادة مما يدل على عبقرية الرجل وبلوغه مستوى كبير من النضج الفكري والعلمي الذي أهله ليتبوأ هذه المكانة الرفيعة بين أقرانه من كبار علماء الاجتماع الذين يعرفون بالآباء المؤسسيين.

- **الإحالات والمراجع:**

أعويش، أمحمد. (2017). إميل دوركايم والمقاربة الوظيفية في علم الاجتماع التربوي، الساعة 19:48 بتاريخ 2017/02/19 http://www.new-educ.com

بدران، شبل. (2003). التربية والمجتمع، ط2، الإسكندرية: دار المعرفة الجمعية.
بزاز، عبد الكريم. (2007). علم اجتماع بيير بورديو، أطروحة دكتورة غير منشورة، قسم علم الاجتماع، جامعة قسنطينة.
بيومي، محمد احمد. (2000). أسس وموضوعات علم الاجتماع، مصر: دار المعرفة الجامعية.
الحسن، إحسان محمد. (1999). واد الفكر الاجتماعي، بغداد: دار وائل للنشر.
دور كهايم، إميل. (1961). قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، مصر: مكتبة النهضة المصرية.
دوركهايم، إميل. (1996). التربية والمجتمع، ط 5، ترجمة على أسعد وطفة، دمشق: دار معد للنشر والتوزيع.
السيد، سميرة احمد. (1998). علم اجتماع التربية، ط3، القاهرة: دار الفكر العربي.
عبد الله، عبد الرحمن. (2006). علم الاجتماع التربوي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
كابان، فيليب، ودورتيه، جان فرانسوا. (2010). علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات، ترجمة إياس خض، دمشق: دار الفرقد.
مرسي، بدر يحيى. (2008). علم الاجتماع مقدمة في سوسيولوجيا المجتمع، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
مركز التوجيه والتخطيط التربوي. (2017). التربية والبداغوجيا عند دوركهايم، الساعة 19:48بتاريخ 2017/02/19 http://www.hassanlahia.com
وطفة، علي أسعد، والشهاب، علي سامي. (2003). علم الاجتماعي المدرسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.